القديس صوفروني، رجل كلمة الله

الأرشمندريت زخريا زاخارو

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

كما يقول القديس سلوان ويشرح القديس صوفروني، يمكن أن تدوي كلمة الله في قلب الإنسان في انسجام مع الصلاة. نتيجة سقوطه، انقسم الإنسان على جميع المستويات. لديه شيء في عقله وآخر في قلبه ويريد آخراً بحواسه. ليس لديه أقنوم. ومع ذلك، لا يستطيع الله التحدث إلى الإنسان طالما أن كيانه مجزأ. بعمل التوبة، تتقوى طبيعته الفانية، ويشفى كيانه ويتجمّع في عقدة واحدة محكمة. عندئذ يمكن لله أن يعطي كلمة، لأنه عندما يخاطب الإنسان، فإنه يوجّه نفسَه إلى أقنومه، أي إلى قلبه، أي إلى المكان الذي يتركّز فيه كل كيانه. هذا الحوار شخصي، وهو ينقل معرفة جديدة من العلى عن التجدد الروحي للإنسان.

يحذرنا الرب من أنه عندما نُدعى إلى المحاكم، يجب ألا نهتمّ من قبل بما سنجيب، لأنه في تلك اللحظة هو نفسه سيمنحنا "فَمًا وَحِكْمَةً لاَ يَقْدِرُ جَمِيعُ مُعَانِدِيكُمْ أَنْ يُقَاوِمُوهَا أَوْ يُنَاقِضُوهَا" (راجع لوقا ١٥:٢١). ولكن هذا لا ينطبق فقط على وقت الاضطهاد، لأن كلمة الرب صحيحة دائمًا. إنه ينطبق في أوقات السلم على النحو التالي: يعطينا الرب كلمة عندما نحاكَم طواعية، أي عندما نحكم على أنفسنا في ضوء الوصايا بروح إدانة الذات. بما أن هذا العمل يرضي الله ووفقًا لوصيته، فإن الرب يضع كلمات التوبة في أفواهنا، وهي تولّد الصلاة بقوة كافية لتغيير حالتنا وتبرير وجودنا ورفعِنا فوق تجاربنا.

بالغالب، هذه الكلمة هي آية من الكتاب المقدس تتوافق مع حالتنا. وهذا يدل على أننا يجب أن نجتهد في قراءة الكتاب المقدس، حتى نحمل كلام الروح القدس كالفحم المشتعل في ذاكرتنا وفي قلوبنا. يمكن أن يعيد الله إشعالها في داخلنا في الوقت المناسب، وبالتالي تلبية احتياجاتنا. كلمة الله تطهّر العقل وتنيره وتقدّسه. خاصة في عصرنا، عندما يتلوث ذهننا بسهولةٍ بظلام هذا العالم ونجاسته، فإننا نكون بحاجة أكبر من أي وقت مضى لتخصيص وقت لكلمة الله، كما ورد في الكتاب المقدس وفي كتابات القديسين.

أعظم موهبة عند القديس صوفروني كانت الكلمة التي تسبق فمه كثمرة للصلاة. على الرغم من التعبير عنها بلغة بشرية، إلا أنها حملت مسحة غير المخلوق. لهذا السبب، كان يجذب ويهزّ كلّ من اقترب منه. كتاباته أفكار صلى بها لسنوات. تم نقشها في أعماق كيانه كما بإزميل ملتهب وأصبحت واحدة مع طبيعته. الروح الموجود في هذه الكلمات يُنقَل إلى أولئك الذين يقرؤونها ويعملون التغييرات بداخلهم على قدر ما يستطيعون أن يستقبلوا.

الخدمة النبوية لكلمة الله في القديس صوفروني

المسيح هو المعجزة التي تذهلنا. إنه علامة الله لجميع الأجيال حتى نهاية الزمان، لأن كل مأزق وجد حلّه في شخصه. في حياته على الأرض، "عاش مأساة البشرية جمعاء، ومع ذلك لم تجد المأساة مكانًا فيه" [١]. على العكس من ذلك، قبل إذلاله الكلي، منح السلام لتلاميذه.

في شخص المسيح، ظهر الإله الأبدي الذي لا يُدنى منه، ولكن أيضًا الإنسان الحقيقي، كما تصوّره الله قبل تأسيس العالم في حضن الثالوث الأقدس برأيه العجيب والأزلي. كل الأشياء تحققت في شخصه، فهو "الطريق والحق والحياة" [٢].

بالامتداد، يمكن القول أيضًا أن جميع القديسين، كمقلّدين للمسيح، هم علامات الله لأجيالهم، الذين يقدمون حلاً "ليس من هذا العالم " للمشاكل التي يواجهها، سواء كانت فلسفية أو نفسية أو لاهوتية. إنهم يعيشون بطريقة طبيعية "مأساة البشرية، وفي نفس الوقت سلام المسيح"[٣].

" داخِلُ الإنْسَانِ وَقَلْبُهُ عَمِيقٌ" [٤] من الصعب التحدث عن القديسين، لأن الإنسان الذي ما زال يعيش في حدود العالم المرئي لا يستطيع حتى أن يتخيّل أعماق قلبِ مسيحي مقدس، ألمَ توبتِه ومحبته، الامتداد اللامتناهي الذي تجتازه صلاته كالبرق، وحرية روحه.

لقد استمرت حياة القديس صوفروني على الأرض قرابة قرن من الزمان، لكن حياته الروحية لا يُسبر غورها. فيما هو نفسه يكتب عن محاولته تصوير شخصية شيخه، القديس سلوان: "كلّ مَن قدّم نفسه بقلب نقي للتأمل في ذاته الداخلية يعرف مدى استحالة اكتشاف العمليات الروحية للقلب، لأن القلب في عمقه يمسّ حالة الوجود التي لا توجد فيها عمليات. ولكن الآن في كتابة هذه النبذة الشخصيةأجد نفسي في مواجهة مثل هذه المهمة: تصوير ارتقاء مجاهد ناسك عظيم"[٥].

على المنوال نفسه، لا يمكننا التحدث عن القديس صوفروني دون الانتقاص من عظمته. ومع ذلك، بأمر من الروح وضد رغبته في العيش بطريقة لا "يُرى من خلالها للناس"، [٦] ترك لنا كتاباته. وأفضل طريقة لمعرفة الصورة الروحية لهذا الرجل المقدس هي قراءة كتبه. كل فقرة هي ثمرة صلاته والشيخ حاضر تمامًا في كلماته.

نال القديس صوفروني بركة التمتع برؤية النور غير المخلوق العظيمة، عندما كان مجرد طفل رضيع. ولكن منذ سنوات شبابه الأولى شعر أيضًا بعبثية وغرور الحياة المؤقتة. خطؤه الفكري في مسارات التأمل التجاوزي الغريبة توقف عن طريق الوحي المنقِذ الذي جلبه الله أمام عينيه، كما في سيناء: "أنا هو الذي أنا".[٧] في توبته "كان يصلي مثل شخص مجنون يبكي بكاء غزيراً، مصاباً حتى عظامه".[٨] عادت صرخة صلاته"إلى مصدر مأساة العالم"[٩].

بشدةٍ أحبّ الشيخ صوفروني يسوع المسيح، الله خالقنا ومخلصنا"، و"بدون تراجع". وقد عبّر بكلماته عن أنه اختبر "حالتين من الوجود تبدوان متعارضتين تمامًا: النزول إلى الجحيم (التوبة والمحبة) والصعود إلى الملكوت"[١٠].

حتى نهاية حياته، تحدث بامتنان لا حدود له عن أبيه في الله القديس سلوان، الذي وصفه بأنه "أهم حدث في حياته"[١١]، وأعظم نعمة. لقد ردّ كل موهبة من العلى إلى صلواته. واعتبر أن الغرض من حياته وأعظم مهامه هي خدمة كلمة شيخه[١٢].

لقد عاش القديس صوفروني بيننا بكل بساطة. كان دافئًا ومحبًا، ولا يمكنك أن تنسى للحظة واحدة أخرى آخَرية روحه، على شِبه المسيح. عقل كان مختلفاً، ومشاعره مختلفة، وأفكاره مختلفة. كان كل اتصال معه بمثابة تفتّح للحياة. عندما كان يفتح فمه يبدو الأمر كما لو أنه انتزع الكلمة من الله وأنزلها إلى الأرض. لقد كان يجسّد كلمة الله في حياته. وبحسب ما يعترف هو نفسه: "كلماته، مثل النار كانت تُنقَل إلى ذهني وقلبي، فتعلّمتُ رؤية الأشياء من وجهة نظره، لأن كلمته أصبحت حياتي"[١٣].

بالتأكيد، عندما نقول أن الشيخ كان رجل كلمة الله، فإننا لا نعني أنه تحدّث عن كلمة الله، بل إنه كان يحمل القوة المحيِّية للإله الشخصي. كانت الكلمة الإلهية تدوي مثل القيثارة في قلبه سواء أكان مستيقظًا أم نائمًا. بمعنى آخر، كان حاملاً للكلمة التي تولَد في القلب بالصلاة، والتي تجدد الإنسان عندما تزوره، وعندما ينقلها إلى الآخرين تنبههم بالنعمة [١٤]. إنها تغيّرهم وتجددهم وتظهِر لهم طرق الخلاص.

لطالما شهدنا معجزات في حضوره، وأحيانًا معجزات مذهلة. ومع ذلك، فهو لم يطلبها أبدًا، ولم يهتم بها كثيرًا. كان يصلي من أجل المرضى، لأنه كان يتعاطف مع الناس ويرغب في تخفيف آلامهم، لكن هدف صلاته الرئيسي كان قلب أخيه. كان يعلم أن أعظم معجزة في كل العالم المخلوق هي اتحاد قلب الإنسان بروح الله. لهذا السبب، استهلكته الرغبة في خدمة هذا الاتحاد بين الوجود المؤقت والأرضي للإنسان مع نور أبدية الله.

شدد على أهمية المناداة باسم الرب يسوع للتغلب على مأزق المأساة الإنسانية ولكي يولد الإنسان في الملكوت الأبدي. يقول عن نفسه: "عندما يصل ألم القلب إلى حدود التحمل الجسدي، فإن استدعاء اسم يسوع المسيح يجلب السلام الذي يحفظ الإنسان حياً". لقد "برّح" بالصلاة الحارّة كل ما فعله أو نطق به.

كما أنه أعطى القداس الإلهي أهمية كبرى، فكان يغمره ويلهمه. قال إنه في زماننا، عندما لم يعد من الممكن إيجاد ظروف مؤاتية للحياة الهدوئية، الاحتفال بالليتورجيا الإلهية، باهتمام وخوف واستعداد مناسب، يجلب نفس النتائج على مستوى الروح، ونفس التقديس الذي تجلبه صلاة القلب. لهذا السبب

كان حريصًا على أن ينقل إلى رهبانه وكلّ مَن طلب مساعدته، محبته للسر الإلهي والتعرّف على مقاربة أكثر عمقاً له.

تمامًا كما اشتهى موسى أن يرى شعب الله كله يتنبأ، كذلك تاق القديس صوفروني أيضًا إلى أن ينقل إلى من حوله نَفَس الروح القدس، كمثل إلهام فنانٍ. لقد قال أن المسيحي يجب أن يكون فنانًا في حياته الروحية. هذا نظرًا لأن الفنانين يستحوذ عليهم موضوع فنهم ويسعون جاهدين لإيجاد التعبير المثالي لإلهامهم، كذلك يجب أن يستحوذ المسيح على المسيحي وأن يجتهد الأخير لتحسين علاقته به، ساعياً "لأن يدرك ذاك الذي من أجله هو أيضًا مُدرَك"[١٦].

بالنسبة للبعض، يصبح الأخ عائقا، حتى الجحيم بالنسبة لآخرين، بينما بالنسبة لأبوينا القديسَين سلوان وصوفروني، الأخ كان حياتهم. وسَّع الله قلوبهم لاحتضان السماء والأرض، تمامًا كما بسط المسيح يديه المقدستين على الصليب ليضمّ كل الناس.

في الختام، سنقتبس من كلمات القديس: "القديس المنفرد هو ظاهرة ثمينة للغاية للبشرية جمعاء. بحقيقة وجودهم - ربما غير معروفين للعالم ولكنهم معروفون لدى الله- يستمد القديسون من العالم، وعلى البشرية جمعاء، نعمة عظيمة من الله... بفضل هؤلاء القديسين -الذين لا يعرفهم العالم- تغيّر مسار الأحداث التاريخية، حتى الكونية. إذن، كل قديس هو ظاهرة ذات طابع كوني، تتجاوز أهميتها حدود التاريخ الأرضي إلى مجال الخلود. القديسون هم ملح الأرض وسبب وجودها. هم الثمر الذي يحفظ الأرض. ولكن عندما تتوقف الأرض عن إنتاج القديسين، ستُخذَل القوة التي تحميها من الكارثة"[١٧].

لهذا السبب، اعتَبَر الشيخ صوفروني الصلاة من أجل العالم بأسره علامةً على الحياة الأصيلة والمقدسة، حيث يقوم رجل الله، إذ توسعه نعمة الروح القدس، بإحضار كل روح خلِقَت منذ تكوين العالم أو سوف تولد حتى نهاية العالم.

معيار آخر للحياة الحقيقية والمقدسة عند القديس صوفروني هو المحبة والصلاة من أجل الأعداء. تدلّ هذه الظاهرة على حضور الروح القدس، الذي بدون نعمته لا يمكن لمثل هذه الفضيلة أن توجد في هذا العالم.

يشهد القديس صوفروني أن محبة الأعداء هي علامة حضور الروح القدس وحقيقة الله، العلامة التي تبرر الوجود العابر للإنسان وتقوده إلى الحياة الباقية التي تسود في حضن الثالوث الأقدس، الآب والابن والروح القدس.

[1] Archimandrite Sophrony (Sakharov), Περὶ Προσευχῆς (On Prayer) Ἱερὰ Μονὴ Τιμίου Προδρόμου, Ἔσσεξ Ἀγγλίας 1993, p. 90.
[2] Cf. John 14:6.

[3] Archimandrite Sophrony (Sakharov), Τὸ μυστήριο τῆς χριστιανικῆς ζωῆς (The Mystery of Christian Life), Ἱερὰ Μονὴ Τιμίου Προδρόμου, Ἔσσεξ Ἀγγλίας 2006, pp. 416-417.
[4] Ps. 63:7 LXX.
[5] Archimandrite Sophrony (Sakharov), Saint Silouan the Athonite, trans. Rosemary Edmonds, (Tolleshunt Knights, Essex: Stavropegic Monastery of St John the Baptist, 1991), p. 10.
[6] Matt. 6:5.
[7] Exod. 3:14.
[8] Archimandrite Sophrony (Sakharov), We Shall See Him as He Is, trans. Rosemary Edmonds, (Tolleshunt Knights, Essex: Stavropegic Monastery of St John the Baptist, 2004), p. 33.
[9] Ibid., p. 81.
[10] Ibid., p. 137.
[11] Cf. ibid., p. 105.
[12] He expressed himself in this way in a letter yet unpublished.
[13] Τὸ μυστήριο τῆς χριστιανικῆς ζωῆς (The Mystery of Christian Life), p. 416.
[14] Cf. Eph. 4:29.
[15] Τὸ μυστήριο τῆς χριστιανικῆς ζωῆς (The Mystery of Christian Life), p. 417.
[16] Cf. Phil. 3:12.
[17] Saint Silouan the Athonite, p. 223.